مقالة علمية

بعنوان : " ثقافتنا بلا عنصرية بين الحلم والحقيقة "

أعدت هذه المقالة كمتطلب لمادة الاتصال بين الثقافات

إشراف الأستاذة : بدرية العبيد

إعداد الطالبة :

الهنوف العيار

شعبة الأربعاء 10-12

بما أنني بدأت بكتابة هذه المقالة بعد عدد لا بأس به من محاضرات استعرضناها عن الاتصال بين الثقافات وما تحتويه من كيفية نشأة الثقافات والعوامل التي تساعد في انتشارها وامتدادها عبر الزمان وأنواع الثقافات من حولنا والتي كان لها الأثر الكبير في توسيع مداركنا للظاهرات الإنسانية من حولنا وكيفية تشكيل ثقافات متشابهة تارة ومتنافرة تارة أخرى بين مختلف الثقافات حول العالم , فهذه المادة خصوصا أطلقت العنان لتأملي في الظواهر الثقافية من حولي وأعني بذلك بعض مظاهر الثقافة المحلية التي تحيط بي في كل مكان سواء في المنزل مع مجتمعي البسيط الذي يحيط فيني أو على مستوى أكبر من ذلك كالعلاقات في الجامعة مثلا والتي كانت تطرح تساؤلات عدة في عقلي لا جواب لها مقنع في أرض الواقع سوى إجابات تكرر بشكل دائم لا تدل سوى أنها موروث ثقافي يفعل لأجل ذلك لا أكثر ولعل هذه من أبرز الصفات التي ذمها القران في الكفار والمشركين عندما تأتي إليهم دعوة أحد الأنبياء أو الرسل فتكون الإجابة دائما كما ورد في القران الكريم : " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ " (البقرة 170) .

إن أبرز الظاهرات التي كانت تثير اهتمامي هي العصبية أو العنصرية على مختلف أشكالها سواء عصبية قبلية كما هو موجود وبقوة في مجتمعنا المحلي أو العصبية الدينية و الطائفية و العرقية و المذهبية و الطبقية التي يكاد يمتد وجودها إلى نشأة البشرية كما ورد في القران الكريم على لسان ابليس بعد خلق سيدنا آدم : " قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ " (الحجر 33) , وكما نلاحظ ظهور في الآونة الأخيرة لأشكال جديدة من التعصب وهو التعصب لنادي معين أو فنان معين أو فكر وأيديولوجية معينة كل هذه الأشكال وأنواع أدت إلى صراع وخلاف نحو الثقافة التي يزعم الشخص أنه لا ينتمي إليها حتى لو كان هذا الصراع او الخلاف لا يتعدى حدود عدم تقبل الآخر وليس كما نراه أحيانا في الواقع من حروب وسفك دماء بدون أي شعور بالذنب نظرا لأنه فقط لا ينتمي إليهم فهو لا يستحق الحياة ولا يمت للإنسانية بصلة , كما أن الانفتاح على الآخر وثورة الاتصال والمعلومات وحرية الرأي والتعبير أدت بوجهة نظري ولو بشكل بسيط إلى تمسك الأشخاص وتعزيز انتماءاتهم العرقية أو القبلية أو الطائفية بل والسعي نحو توظيفها لخدمة هذه الأغراض كما نراه يحدث في القنوات التلفزيونية وبعض مواقع التواصل الاجتماعي بتخصيص حساب أو قناة مثلا لقبيلة أو عرقية معينة وتبدأ بمناداة من ينتمون لها بشعارات خاصة بهم وتبني مفاهيم وأيديولوجيات مشتركة كل ذلك يؤدي إلى إثارة النعرات بين القبائل والعرقيات المختلفة والتي تؤدي لعواقب وخيمة لا يحمد عقباها ,

وكل ذلك يوضح أن الحديث عن التعصب قد يطول نظرا لأنه ليس وليد اليوم بل تمتد جذوره لآلاف السنين لذلك لن يكون التغيير في يوم وليلة ولكن - باذن الله - مثل هذا الطرح يساعد المجتمع شيئا فشيئا نحو التغيير والإمتثال لقول المصطفى – صلى الله عليه وسلم - : " لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى " فالتقوى هي معيار التفاضل الحقيقي لأن آثارها تمتد لدار بقاء وليست إلى دار فناء.

وفي سياق ذلك يبقى السؤال المثير للاهتمام هو : هل سلوك التعصب فطري أم مكتسب تختلف حدته باختلاف الثقافات ؟ ؟ كما ينبثق من هذا التساؤل عدة أسئلة أبرزها :

- ما هي أخطر أنواع التعصب أو العنصرية على الثقافات المختلفة ؟ ؟ أم أن كافة الأنواع بنفس المستوى من الخطورة على المجتمعات ؟ ؟
- هل لوسائل الإعلام دور في تعزيز ممارسة سلوك التعصب في مجتمعنا السعودي كمثال ؟ ؟
- كيف نحاول نحن كأفراد في التأثير نحو العصبية المتوارثة بالشعب السعودي ؟ ؟

من خلال البحث والإطلاع خاصة في كتب علم النفس فلا يوجد أي دليل أو أي دراسة تشير إلى أن التعصب صفة فطرية أو إنها موجودة بشكل جبلي من ضمن التركيبة البيولوجية لشخصية الفرد , فالإنسان بطبيعته مفطور على الخير والحب والمساواة وعدم الانحياز لجنس معين ويدلل على ذلك من خلال مراقبتنا للأطفال في سن مبكر من المدرسة مثلا فلا يوجد لديهم أي تحيز أو مشكلة في اللعب مع طفل ذو بشرة سوداء مثلا ويكتفي بمعرفة اسم أي طفل دون أي أهمية بمعرفة تفاصيل أخرى نحو الآخر ولكن ما يلبث إلا أن يبدأ بسماع من حوله مثلا في أحد الأماكن العامة ينعت شخص أو بائع ب " الأسود " أو " العبد " وخاصة إذا كان قدوة له كأب أو أخ أكبر أو ما شابه ذلك , أو يلاحظ الانقسامات العنصرية بالمجتمع المحيط به سواء كانت نحو النسب كما هو منتشر أو نحو البشرة حتى يبدأ بتشرب مثل هذه المفاهيم وتطبيقها ولا يكون الطفل حينها قادر على التمييز فيحاول التأكيد على هذا المفهوم الجديد الذي تبناه في كل فرصة تتاح له سواء كانت في موضعها أو لا ولذلك نجد الكثير من الأطفال في المدارس خصوصا في عمر أكبر قليلا يبدؤون بتكوين جماعات مقربة لهم صفات متشابهة بل ويعزز

بعض الآباء ذلك من خلال جعل أطفالهم الذين ينتمون لبعض بحكم القرابة في مدرسة واحدة والتنبيه عليهم بعدم صداقة أي طفل خارج هذا الإطار الذي حدده الآباء , ومن هنا تبدأ فكرة عدم تقبل الآخر إلا بحكم معايير معينة يحددها المجتمع بالتوسع وينضج هذا الطفل متشبع بهذا الفكر ويبدأ بممارسته وتطبيقه وتعود الدورة مرة أخرى , ولعل من الجدير بالذكر في هذا السياق دراسة سعد الدين ابراهيم (1989 م) بعنوان " **التعصب والتحدي الجديد للتربية في الوطن العربي** " وقد تناولت هذه الدراسة محور العلاقة بين التربية والتعصب , وقد اوضحت الدراسة ان التربية في الوطن العربي تلعب دورا كبيرا في تعزيز الاتجاهات التعصبية لدى الافراد بشكل عام سواء كانوا اطفالا او طلابا او بالغين فمن الملاحظ أن أنماط التربية العربية تعزز بعض القيم السلبيه بخصوص التعصب والأفكار الخاصة بالجماعات والطوائف والعرقية وكما انها تعطي بعض التصورات السلبيه والخاطئة عن الاخرين بشكل غير عقلاني . وقد اوضحت الدراسة كذلك جملة من العوامل الثقافية التي لها دور كبير في تغذيه وتنميه العصبيه في معظم المجتمعات العربية ولاسيما في مؤسسات الدوله والقطاعات الحكوميه وقطاعات العمل ,وكان احد التوصيات التي قد اشار اليها الباحث هي التأكيد على اهميه مواجهة هذه الظاهرة وتحديد عوامل نشاطها والعمل على مواجهتها والحد منها ,لان هذه الظاهرة تعد من اهم عوامل انهيار المجتمعات سابقا وفي الوقت الحالي.

ومن هنا يتضح أن زعم الكثيرون منا أن التعصب العرقي أو العنصرية موضوع غير مهم سواء على مستوى الفرد أو المجتمعات وأنه يجب أولا حل الكثير من الموضوعات الأخرى التي تعتبر بوجهة نظرهم أنها أهم , وأنه لا علاقة له بحياتنا اليومية على الجوانب المختلفة سياسيا واقتصاديا وفكريا واجتماعيا هو زعم خاطئ , وأنه في الواقع له علاقة وثيقة بمرارة واقع البشر الذين يعيشون حتى هذا اليوم ، ويمكننا القول : إن التعصب العرقي أو العنصرية كانت وما زال ذو تأثير كبير في حياة الناس ، وقد يكون تأثيره في أحيان معينة أخطر من التعصب الفكري ، أو الحزبي ، أو الرياضي لأن كثيراً من الناس لا يوجد لديهم أدنى اهتمام بالمبادئ الفكرية ، ولا ينتمون إلى أحزاب أو أندية رياضية ، ولكن من المؤكد أن لكل البشر مرجع عرقي سواء كان من أسر وقبائل وعائلات وشعوب وجنسيات وقوميات ، وجميع هذه الدوائر في الغالب تدعو إلى التعصب العرقي حتى وإن كانت لا تشعر بذلك , ولا يعني ذلك أن هذا الأمر منحصر على دول معينة كدولنا الخليجية أو العربية إنما يمتد ليوجد في دول متقدمة تكنولوجياً ، وفي مجتمعات علمانية ، وفي مجتمعات إسلامية ، وفي دول نامية ، وقد يستنكر

القارئ هذا عند قراءته للوهلة الأولى ! ! ولكن نعم فلو لم يكن التعصب العرقي موجودة عند الغرب لما قاموا بتقسيم العالم إلى دول متقدمة , ودول نامية , ودول عظمى , ودول صغرى , ودول العالم الثالث وغيرها من المسميات التي تدلل بشكل قاطع على ممارستهم لمثل هذا النوع من العنصرية , كما أن تجليات العولمة الحالية ومحاولة فرض ثقافة موحدة على العالم بدعاوى باطلة مثل " أن هذا هو النسق الثقافي الأنسب للشعوب في بقاع الأرض كافة " ومحاولة إلغاء باقي الأنساق الثقافية المنتشرة حول العالم بل وتكييفها نحو اتجاه واحد وهو بالأصح الثقافة الأمريكية , وكما يسمي بعض العلماء العولمة بالأمركة لأنها محاولة فرض الثقافة الأمريكية على باقي الثقافات لكي تبقى تحت جناحها وسيطرتها , كل ذلك دليل قاطع على ممارسة جميع الدول بشكل أو بآخر مظهر من مظاهر العصبية والعنصرية مما ادعت غير ذلك ونادت بشعارات وأقامت منظمات ومؤسسات تدعو الغاء التمييز بين الأشخاص وحقوق الإنسان وغيرها .

ولعل أهم الأسباب التي تجعل أن التعصب العرقي هو الأخطر هو كون هذا النوع عدو مجهول بمعنى أنه قلة من يدركون في وقتنا الحاضر خطورته وآثاره التي لا يحمد عقباها على كافة ميادين الحياة اليومية , وذلك لأن الكثيرون يعتبرونه جزء من الانتماء القومي أو القبلي أو الطائفي أو الوطني , وذلك بسبب الخلط بين مفهوم الانتماء والحب من جهة وبين التعصب أو العنصرية من جهة أخرى ولذلك نجدهم يدافعون عنه بل ويعتبر البعض أن المناداة بمثل هذا الأمور هي تخلي الجذور ولا حياة للزهرة بلا جذور , وهم بذلك لا يشعرون أنهم يدافعون عن الظلم , الباطل , والرجعية , والتخلف , والجهل !! وذلك كما أجاب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – عندما سأله واثلة ابن الأسقع عن العصبية ؟ فقال – عليه السلام - : " أن تعين قومك على الظلم " .

ومن ابرز الدراسات التي أوضحت فعلا أن التعصب العرقي والطائفي خطر على كافة الميادين هي دراسة عيسى الأنصاري بعنوان " التعصب القبلي والطائفي في جامعة الكويت " جامعة الكويت/ كلية التربية(2006/2005م).

تشكل هذه الدراسة محاولة علمية كاشفة عن مظاهر التعصب القبلي والطائفي ومدى انتشاره في جامعة الكويت. وقد أجريت الدراسة في العام الدراسي 2005 /2006 على عينة بلغت 1791 طالبا وطالبة أي بنسبة 10% من المجتمع الأصلي، وقد روعي في العينة تمثيلها للجنس والكليات الجامعية والأقسام العلمية والسنوات الدراسية المختلفة. وحاولت الدراسة الإجابة عن

أسئلة كاشفة لرأي الطلاب في مدى حضور التعصب الطائفي والقبلي في الوسط الجامعي بين الطلاب والمدرسين وفي النشاطات الانتخابية للطلاب. وتعد هذه الدراسة من الدراسات الاستطلاعية حيث اعتمد منهج البحث الوصفي التحليلي في دراسة الإشكالية المطروحة.

وقد بينت الدراسة في نتائجها حضور كبير للتعصب بنوعيه القبلي والطائفي في المجتمع الكويتي وفي الوسط الأكاديمي لجامعة الكويت بصورة عامة سواء في مستوى سلوك الأساتذة والطلاب والانتخابات الطلابية. وبينت الدراسة تأثير متغيري الكلية والسنة الدراسية في موقف الطلاب من مدى حضور هذه الظاهرة وتناميها في الوسط الجامعي.

وقد خرجت الدراسة بعدد من التوصيات الهامة التي تتعلق بإجراء البحوث المعمقة حول هذه الظاهرة وعقد الندوات والمؤتمرات من أجل بناء إستراتيجية علمية وسياسية لمواجهة هذه الظاهرة بكل من تنطوي عليه من مخاطر وتحديات.

إن تفشي العصبية القبلية في المجتمعات وبخاصة العربية منها ليس بالأمر المستعجب ، فقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك منذ أربعة عشر قرناً عن اربعة خصال من خصال الجاهلية تظل في أمته ،ولا يتركها اهل الاسلام ، قال - صلى الله عليه وسلم - : " أربع في أمتي من أمر الجاهلية ؛ لا يتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة "

ولاشك أن معرفة النسب امر مهم ونعمة عظيمة تستحق الشكر لا الفخر ، ولكن الخلل يكمن في أن يكون ذلك مدعاة لاحتقار الناس والتعالي عليهم او التفريق بين عباد الله وتصنيفهم الى طبقات تفصل بينهم حواجز النسب وعوازل الحسب (الجريسي ، 2006 : 50) ، وقد بين الله تعالى سبحانه في كتابه الكريم الحكمة من جعل الناس شعوبا وقبائل ، قال تعالى : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند أتقاكم إن الله عليم خبير " فالله سبحانه قال " لتعارفوا" وليس لتتفاخروا وتتكبروا كما وضح سبحانه معيار التفاضل الحقيقي فقال "إن اكرمكم عند الله أتقاكم " ولم يقل اشرفكم نسباً وحسبا .

ومن الملاحظ في وقتنا الحاضر سرعة الاتصالات والثروة المعلوماتية وسهولة الوصول للآخر كل ذلك بسبب التطور الهائل في وسائل الإعلام والاتصال والتي كان لها الدور في انفتاح الثقافات بعضها على بعض والغاء الحواجز الجغرافية غالبا للوصول للآخرين مهما كان بعدهم جغرافيا , ولعل ذلك جعل المجتمعات العربية يستغلون مثل هذه الوسائل لنشر أفكارهم و ارائهم لكي يحظون بتأييد أكبر من الجماهير المتلقية لهم بل ونشر مثل هذه الأفكار والتي تجعل

البعض يقلد تقليد أعمى ويراها " موضة " دون الإحساس بالخطر الفعلي الذي يمارسه , ولا شك أن لوسائل الإعلام دور كبير في عملية إثارة العصبية بين الأفراد وذلك عن طريق بث البرامج أو المواد الإعلامية التي بدورها تثير التعصب في حال كونها تركز على الأصول أو العرقيات أو التركيز على طائفة معينة أو قبيلة في بث برامجها كما انه في حال نشوب خلاف بين فردين من قبيلتين مختلفتين فإن بعض وسائل الإعلام تثير هذا الأمر وتحول القضية لقضية ثار وانتقام وتراه من ذلك أداة سهلة للترويج عن محتوى برامجها كما لاحظنا مؤخرا ظهور بعض فضائح القنوات في هذا الصدد وذلك بلا شك يعمل بدوره على تعزيز التعصب ولما كانت تكلفة إنشاء قناة تلفزيونية مثلا تكلف الكثير من المال والجهد ووجود قواعد وخطط معينة لممارسة العمل الإعلامي التلفزيوني مما حال دون استغلال مثل هذه الوسيلة للترويج بين المجتمعات جاءت مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها لتفتح الآفاق أمام الجميع كائنا من كان بكبسة زر واحدة وبتكلفة لا تذكر مقابل الوسائل الأخرى فتسمح للفرد من بيته للوصول إلى أكبر الجماهير في وقت واحد وبقيود محدودة , هذا التطور أتاح الفرصة نحو الأفراد لممارسة وتطبيق أفكارهم داخل هذا الصرح بلا قيود فمن المؤكد أن الجميع يلاحظ خلال تصفحه لأحد هذه البرامج كتويتر مثلا الكم الهائل من حسابات الطوائف المختلفة كالسنة والشيعة على سبيل المثال أو داخل المجتمع الواحد كالمجتمع السعودي والخليجي بحسابات تخصص لقبائل معينة وما يدور فيها من اثارة النعرات القبلية والمفاخرة بالآباء والأجداد وغيرها من ممارسات العصبية القبلية من تصميم صور وشعارات ورموز تعزز من ذلك .

ومن هنا يقع على عاتقنا نحن كأفراد مهمة عصيبة يجب أن نتكاتف يدا بيد ونسعى بكل ما أوتينا من قوة لدرء مثل هذه الممارسات التي وصفها – صلى الله عليه وسلم – بالجاهلية وعلينا في البداية أن نبدأ بأنفسنا ونعالجها تماما ثم بالمحيط القريب من حولنا وتنشئة أطفالنا تنشئة سليمة لا يشوبوها مظاهر العنصرية , ويجب أن لا نقول أننا لن نستطيع فأول الغيث قطرة لذا فنحن جميعا قادرون نحو التغيير لحب واحترام ثقافاتنا ولكن بلا عنصرية **!!**

المراجع :

1. الانصاري,عيسى محمد.(2006م).التعصب القبلي والطائفي في جامعه الكويت.الكويت:دار التعاون للنشر والتوزيع
2. الجريسي، خالد عبدالرحمن.(2006).العصبية القبلية من المنظور الإسلامي . الرياض : مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان .
3. القحطاني,فرحان محمد .(1428هـ).التحاكم الى العادات والاعراف القبلية حكمه وخطره.الرياض:مكتبة صيد الفوائد